ʿAwdatun ʾilā masʼalat al-lugha fī al-Maghrib: min ajli muqārabatin wāʼiyyah wa masʼūwlah

عودة إلى مسألة اللغات في المغرب: من أجل مقاربة واعية ومسؤولة

عبده الفلالي الأنصاري

1. لم العودة الى مسألة اللغات؟ وماذا نعنيه بالمقاربة الواعية والمسؤولة؟

لا نحتاج إلى التذكير بأهمية الأسئلة المتعلقة باللغات، سواء عندنا في المغرب أو عند جيراننا أو عند غيرنا. إنما من اللافت للانتباه أن الأسئلة حول هذا الموضوع تعود بانتظام إلى الواجهة، لتنطلق حولها مناقشات تتحول إلى سجالات ومواجهات تصل أحيانا إلى تبادل التهم والقدح؛ ثم يتبع ذلك فترات من الصمت، دون أن يعني ذلك أن المسألة حُسمت أو أن تَفاهما حَصل. وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء ونظرنا إلى حلقات هذا النقاش خلال قرن من الزمان على صعيد كل الدول العربية، ستبدو لنا وكأنها حرب خنادق، تلتهب "الجبهة" خلالها من آن لآخر، ثم يبقى كل معسكر متشبثا بأطروحاته، متخندقا في مواقفه.

نروم من خلال هذه الورقة لفتَ الانتباه إلى معطيات يبدو أنها غابت عن العديد من المتدخلين في حلقات النقاش حول اللغة، وإظهارَ أفكار وأحكام مسبقة ترد مبطنة أو مضمرة في تعابير يتم ترديدها على نطاق واسع دونما انتباه إلى حمولتها. ما نرجو، إذن، هو إزالة ما يبدو لنا عقبة أو مجموعة عقبات تحول دون تشخيص دقيق للإشكاليات المطروحة ودون صياغة أسئلة قابلة لتناول معقول لها. بعبارة أخرى، إن الوعي الذي نعنيه، هنا، يتم بالانتباه إلى معطيات أساسية، وكذلك بالكشف عن مضامين مرتبطة بصيغ وتعابير شائعة. أما المسؤولية فنعني بها القبولَ بالواقع كما يبدو لنا ولغيرنا ولو خالف أهواءنا، وتدارسَ خيارات المستقبل بمراعاة متطلبات عديدة قد تكون متضاربة ويصعب التوفيق بينها.

2. المعطيات أولا

- تُكوِّن اللغات في البداية وسائل تواصل يومي مطبوعة بخصائص التعدد والتنوع والتطور: فهي متعددة لوجود لغات عديدة يختلف بعضها عن البعض تماما؛ وهي متنوعة لتواجد العديد من اللهجات داخل كل لغة وتوزعها النسبي في المجالات الجغرافية؛ ومتطورة نظرا لتغيرها المستمر في الزمان.

Journal Indexed in Emerging Sources Citation Index (Web of Science)
Covered in *Clarivate Analytics* products and services, ISSN: 0018-1005

-. يحدث لبعض اللغات أن يتم اعتمادها للتداول وللتدوين. ويحصل تدوين أو كتابة أية لغة بناء على قرار تتخذه سلطة سياسية أو دينية؛ إذ أن "التدوين يأتي متأخرا عن الاستعمال الشفهي بحكم وظيفته التسجيلية لواقع متقدم عليه."

-. يلاحظ المختصون في اللسانيات أن وراء كل لغة مكتوبة سلطة قائمة وقادرة على فرض لهجة ما معيارا للاستعمال السليم ورفض ما عداها على أنه استعمال خاطئ. ويلخص البعض هذه الملاحظة في المعادلة التالية: اللغة المكتوبة = لهجة + قوة عسكرية.

-. عندما يتم اعتماد لغة ما للتدوين والتداول المكتوب، تطرأ عليها تغييرات هامة، منها أنها تغتني بمصطلحات وتعابير ومفاهيم مرتبطة بالمجال الذي اعتمدت فيه، مثل تدوين عقود بيع وشراء، أو تقارير إدارية أو تقارير علمية أو نصوص دينية وأدبية، فتصبح بفعل ذلك "لغة عالمة،" بعد أن راكمت تعابير ومفاهيم تشكل أدوات متخصصة في مجالات مختلفة عن الاستعمال في التخاطب اليومي. بالإضافة إلى ذلك يتم العمل على تقنين اللغة بإخضاعها إلى أنماط ومعايير محددة، مما يحد من تنوعها وتطورها؛ ويكون ذلك أيضا بقرارات من سلطة تسهر على عملية الكتابة." وتجدر الإشارة إلى أن ظهور الكتابة بشكل عام لا ينتج بصفة عفوية وإنما يرتبط أيما ارتباط بالمجتمعات المستقرة التي تتمتع بنظام سياسي مركب ومركزي بما أن الكتابة أداة نفوذ."[1]

-. ونتيجة لما سبق تظهر مواجهة بين اتجاهين: الأول يفرضه واقع الممارسات اللغوية التي تميل إلى التنوع والتغير؛ والثاني هو عمل الساهرين على عمليات الكتابة من أجل كبح ذلك الميل وضبط كل الاستعمالات عبر قواعد موحدة ومستقرة.

بالإضافة إلى هذه المعطيات، تجدر الإشارة إلى أن الفكرة السّائدة، فيما يخص اللغة العربية، هي أنّها لغة وجدت مكتملة منذ البداية، وأنّ استعمالها من غير أهلها،خارج وطنها الأصلي، أدّى إلى التراجع عن المعايير التي تضبطها، وبالتالي إلى تسيب في التعامل بها. الأمر الذي أنتج مجموعة من اللهجات العامية "المبتذلة" هي التي نجدها متداولة الآن والتي تسمى أشكالها في المغارب بالدارجة.

لكن يكفي أن نلقي نظرة على التاريخ لنرى أن الأشياء تمت بشكل مغاير؛ وفي هذا يقول علي فرغلييى: "اللغة العربية تكونت بدءا من لهجة لا يُعرف أصلها ولم تكن لها أيّ مكانة. وقد أصبحت لغة مهمّة على الصعيد العالمي بعد الفتوحات الإسلامية."[2]

---

1. محمد القبلي، **تاريخ المغرب، تحيين وتركيب** (الرباط: المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2012)، 110.
2. Ali Farghaly: "The Arabic Language, Arabic Linguistics and Arabic Computational Linguistics," in https://bit.ly/2UOzuv0

وتتفق المصادر التي استندت إليها الروايات المتعلقة بأصل اللغة العربية على وجود لهجات متعددة بين القبائل العربية قبل ظهور الإسلام وبعده. ويدعو النص القرآني المسلمين إلى الاعتراف بتنوع الألسن والأعراق واعتبارها تجليا للقدرة الإلهية؛ ويُلفت النظر إلى أنه قد صيغ في لغة عربية واضحة يفهمها الجميع، مختلفة عن اللهجات المتداولة آنذاك بين قبائل العرب. فهل كانت تلك الصيغة لهجةَ مكّة التي كانت القبائل تقصدها للحجّ؟ أم لغةً صهرها شعراء الجاهلية ليفهمهم الجميع؟

يقول طه حسين:

"ولست أنكر أن اختلاف اللهجات كان حقيقة واقعة بعد الإسلام. ولست أنكر أن الشعر قد استقام للقبائل كلها رغم هذا الاختلاف. ولكنني أظن أنك تنسى شيئا يحسن ألا تنساه، وهو أن القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها،وتقيدت في الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت في لغتها الخاصة، أي أن الإسلام قد فرض على العرب جميعا لغة عامة واحدة هي لغة قريش. فليس غريبا أن تتقيد هذه القبائل بهذه اللغة الجديدة في شعرها ونثرها في أدبها بوجه عام."[3]

بحكم انتشار الإسلام في بقاع تتعدى، بكثير، المجال حيث كانت لهجات عربية تشكل لغة التواصل اليومي، تم اعتماد لغة القرآن كلسان مخصص للمسائل الدينية وكل ما يتطلب التدوين. وبذلك أصبحت العربية لغةً رسمية لدى النخب التي كانت تتكفل بقراءة النصوص واستنتاج ما يحتاجه المجتمع في مجالات المعتقدات والطقوس الدينية والمعايير الأخلاقية والتنظيمية. وهكذا، أصبحت العربية لغة التواصل بين النخب ولغة الولوج إلى مصادر التدين وإلى القواعد المنظمة للحياة العامة.

وحيثما انتشر الدين الإسلامي عملت النخب العالمة على تثبيت لغة التواصل في مجالات الدين وعلى مواجهة كل ما كان من شأنه أن يغير أشكالها، سواء بفعل التنوع أو التطور. ومن أجل هذا، ألف المفكرون والعلماء خلال القرون الموالية لعصر التدوين كتابات تدين "لحن العوام" والذي ضم كل انحراف عن الأشكال المعيارية التي استنبطت من النصوص المؤسِّسة. ونتيجة لذلك، عملت النخب على تجميد اللغة المكتوبة بالتشبث بأشكال لا تبعد عما وجدوه في النصوص الدينية. وقد سهل ذلك أن معظمهم كانوا من أصول غير عربية، أي أن العربية أو أية لهجة من لهجاتها لم تكن لغة الأم للغالبية منهم؛ فتعاملوا مع اللغة مثلما تعاملوا مع أحكام الدين، وعملوا على استنباط قواعد اللغة بالمنهجية نفسها التي اعتمدوها لوضع منظومات من الأحكام انطلاقا من النص القرآني والسنة النبوية.

---

3. طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 1927)، 86.

ونتج عن ذلك وضع يسميه المختصون في اللسانيات بالازدواج اللغوي، حيث تنفصل لغة التواصل اليومية (ما سمي بالعامية) عن اللغة المكتوبة؛ ولربما، مثلما توصل إليه طه حسين وآخرون غيره، إن الازدواج اللغوي قد حدث منذ البداية، وإن اللغة العربية الفصحى لم تكن في أي وقت لغة الأم لأي أحد، وإنما كانت منذ البداية مبتكرة لحمل أنواع معينة من الخطاب مثل الخطاب الشعري أو الخطاب العقدي الديني.

ترسخ هذا الوضع فيما بعد، حيث صارت العربية الفصحى لغة الخطاب الرسمي أو لغة الصناعة (حسب المعنى المقصود بعبارة "صناعة الشعر") في مقابل لغات الطبيعة (ما سمي بالعاميات) التي واصلت تطورها وفق عوامل التنوع والتطور .ألا نجد أنفسنا، والحالة هذه، في وضع يستعمل فيه الناس لغتين مختلفتين، إحداهما للأوضاع التي تتطلب نوعا من"الصناعة،" والأخرى لغيرها، أي لسائر أوضاع الحياة التي يتم التعبير فيها بعفوية؟

لكن مع بداية القرن العشرين حصلت تحولات كبرى همت جوانب عديدة من الأوضاع السائدة والتطلعات الشائعة لدى الشعوب والنخب في البلدان العربية. ففي مجالات التواصل، كان لدخول المطبعة وظهور صحافة مكتوبة، في أرجاء عديدة من هذه البلدان، أثرٌ كبير في ظهور معالم التغير والتطور التي كانت تشهدها المجتمعات آنذاك، وفي اتساع دوائر المتتبعين لأنباء المنطقة والعالم، وفي التشبع بالنظريات التي ظهرت في أرجاء بعيدة وأثرت إلى حد كبير في إحداث تطلعات جديدة لدى شعوب مختلفة. ولم يعد سكان المنطقة يعيشون بمعزل عن أحداث العالم وعن التيارات الفكرية والأيديولوجيات السياسية التي كانت تظهر فيه.

ويقول أحد المساهمين في النقاش حول مسألة اللغات: "نظر الرعيل الأول من المفكرين والأدباء النهضويين إلى اللغة بحسبانها ماهية الحضارة والثقافة، والعامل المؤسس للشخصية، وأدركوا مبكرا أن تبديد اللسان العربي هو أقصر طريق لمحو الشخصية العربية أو ابتلاعها. ونحن، اليوم، لا نملك أن نجادل في أن هذا الإدراك اللغوي المبكر لمكانة اللسان في كيان الأمة وفي مشروع النهضة هو ما أسس لميلاد خطاب قومي عربي في مطالع القرن العشرين، وحركة قومية بعد زوال الإمبراطورية العثمانية."[4]

4. عبد الإله بلقزيز: "اللغة العربية: منطلقات وأهداف،" **النهضة**، 9 (2014): 47. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الملاحظة قد وردت في مساهمة قدمها المؤلف ضمن عدد خصصته مجلة **النهضة** الصادرة في الرباط للدفاع عن العربية تحت عنوان "لإنسان اللسان: في اللغة العربية وقضاياها،" واستهلته بإعلان "بيان اللسان: من أجل اللغة العربية" مذيلا بقائمة أسماء عدد من المثقفين والأدباء وقعوا عليه، وضمنته مجموعة من المقالات تقدم حججا وتعليلات من منطلقات مختلفة لصالح اللغة العربية. وبما أن هذا العدد يقدم عينة لما هو شائع من مواقف من مسألة اللغة، فستتم الإحالة إليه مرارا في الصفحات التالية.

ما تغفله هذه الملاحظة هو، أولا، أن ذلك الإدراك إنما كان نتيجة تأثير إيديولوجية ظهرت في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وأحدثت مفهوم الشخصية الوطنية، وجعلت من اللغة الوطنية، أي لغة النخب المكتوبة، ماهيةَ تلك "الشخصية." والأمر الثاني الذي تغفله الملاحظة أعلاه هو أن تأثير هذه الأيديولوجية قد ظهر أول ما ظهر في المناطق ذات الأغلبية العربية، في العراق والشام، وجعل النخب فيها تتجند في مواجهة سيطرة الدولة العثمانية، ثم الاستعمار البريطاني والفرنسي، قبل أن يفضي الأمر إلى بروز حركات ترفع شعارات مثل "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة." الأمر الذي أضفى نوعا من المشروعية على مواقف بعض النخب ودفعها إلى التشبث بلغة الصناعة جعلها تواصل الخط الذي سار فيه الأسلاف، مع فارق مهم، وهو أن تعلق السلف بلغة الصناعة إنما كان أساسا لدوافع دينية، أما تعلق المتأخرين فكان لشعور جديد بالقومية. ومن نتائج ذلك، عودة الشعور بأن لغات التخاطب اليومي عاميات لا فائدة منها؛ وقد بدا ذلك بديهيا في ظروف المواجهة مع المستعمر وتأجج المشاعر الوطنية.

3. أحكام مسبقة مضمرة في تعابير شائعة

ويحصل في النقاش الجاري بخصوص اللغة استعمال تعابير تروج أفكارا وأحكاما ينظر إليها على أنها بديهيات رغم أنها مبنية على ارتسامات وانطباعات ما عادت مقبولة ولا معقولة. أول تلك التعابير هي "العامية" أو "العاميات،" كما يرددها العديد من الكتاب والأدباء اليوم. ومن البديهي أن هذا المصطلح يحيل، في سياقنا، إلى التمييز الذي ساد في مجتمعات تقليدية (ما قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حسب الجهات) بين طبقات اجتماعية كانت تلعب أدوارا مختلفة ترتبط بها أوضاع اقتصادية وتتكون حولها أحكام قيمة. كانت الخاصة تضم الذين تلقوا تعليما يمكنهم من القراءة والكتابة، ومن ثم القيام بأدوار القائمين على الموروث الديني، وما يترتب عن ذلك في مجالات تلقين العقائد وضبط الأنظمة الاجتماعية. كانت الخاصة، بفضل ولوجها إلى التراث المكتوب، تعتبر نفسها وتُعتبر الحارس للقيم والساهر على احترامها وفرض العمل وفقها في كل مجالات الحياة، العمومية منها أو الخصوصية، بما في ذلك إرشاد ذوي الأمر، أصحاب السيف الذين كان ينتظر منهم أن يضعوا سلطتهم في خدمة الدين ("الدفاع عن بيضة الإسلام"، كما كان يقال)؛ بينما كانت العامة، نظرا لجهلها القراءة والكتابة، تعد مثل قطعان البهائم، يقتصر دورها على القيام بالأعمال اليدوية اللازمة لإنتاج متطلبات العيش المادية. وكانت العامة تعتبر فعلا من طرف الخاصة أقرب إلى البهائم، تتطلب أن تساق إلى حيث تدرك خيرها، وتتفادى بؤس المصير في الدنيا وفي الآخرة. مجمل القول إنه كانت هناك طبقية وتراتبية اعتبرت طبيعية وبديهية، وارتبطت بها تصورات قيمة وموارد مادية. وباختصار، لكلمة العامية حمولة لا يمكن قبولها اليوم: فكرة الطبقات والتمييز بين عامة

وخاصة. وإذا كان الفرق واضحا في الأزمنة القديمة بين الطبقتين، نظرا لأن الخاصة كانت طبقة متعلمة، تحسن القراءة والكتابة مما كان يؤهلها للقيام بأدوار أساسية مثل إمامة الصلاة والقيام بمهام القضاء بينما تقوم العامة بأدوار اعتبرت دونية مثل كل الأعمال اليدوية وما يطلب إنتاج مستلزمات الحياة، فإن الأمر ما عاد ممكنا القبول به، ولا عادت الأسباب التي كان يقون عليها ذلك التمييز قائمة.

فأين نحن من تلك التصورات؟

منذ القرن التاسع عشر، أدرك ألكسيس دو توكفيل (1805-1859) الذي يعد من مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وكان وليد أسرة تنتمي إلى طبقة "النبلاء،" أن عهد الطبقية قد ولى دون رجعة، وأن المستقبل سيكون للمساواة بين البشر، على مستوى التصورات والتطلعات.

أما اليوم، وقد أشاعت سياسات تعميم التمدرس القدرة على القراءة والكتابة؛ وشاع التعلق بالنموذج الديموقراطي الذي لا يعترف بوجود طبقات مثل الخاصة والعامة، ولا بأية طبقية أخرى، وشاع أيضا استعمال لغة الطبيعة "الدارجة" في وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي. ولذلك نتساءل ألم يحن الوقت لتحيين تعابيرنا وإعادة النظر في رواسب نظام اجتماعي ولى ولم يعد يناسب مبادئنا الأساسية؟

ما يزال بعض المفكرين والأدباء المعاصرين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يشكلون نخبة متميزة لمجرد كونهم يحسنون القراءة والكتابة بالفصحى، وما نزال نقرأ أن العامية "لغة مبتذلة وهجينة" وما إلى ذلك من تعابير مشحونة بتصورات وأحكام قيمة لم يعد لها مكان. وإذا أردنا استبدالها بتعابير وصفية ومحايدة، وجب اتباع ما اتفقت عليه غالبية ساكنة المغارب، من قبيل أنها تُسمي لغة التخاطب اليومي بالدارجة، كما أن غالبية ساكنة المغارب الناطقين بالأمازيغية تسمى لغة التخاطب اليومي (وقد أصبحت الآن لغة مكتوبة) بالأمازيغية. وفي ضوء هذا، نقترح أن نعتمد هذه التسميات الثلاث: العربية، الدّارجة، الأمازيغية.

4. ماذا عن الدّارجة؟

هل هي منبثقة من العربية كما يعتقد جمهور المفكرين والأدباء؟ وهل انبثقت عنها بالشكل الذي تصورته نخب المجتمعات التقليدية، أي بتدني مستوى الانضباط بقواعد اللغة الحقة، باستتباب فوضى في الممارسات اللسانية وانحطاط في الأداء اللغوي؟

كما أسلفنا القول، إن التعدد والتنوع والتطور تعتبر من خصائص الأنظمة الحية، بما في ذلك اللغات التي تنعت بـ"الحية" كما يقال؛ والتعدد والتنوع والتطور تعد، بعبارة أسلافنا، من "سنة الله في خلقه،" بينما تظل العربية وليدة إرادة في التجرد والاستقرار أبدتها النخب في كل

العالم ذي الغالبية المسلمة لأسباب دينية وللحفاظ على نظام اجتماعي كان يستجيب لتطلعات كانت سائدة. وهذا الاختلاف أو التميز الذي نراه بين الدارجة والعربية، ليس بأي حال من الأحوال عرضا مرضيا، وليس نتيجة انحطاط أو ضعف، إنما هو ناتج عن كون الدارجة لغة طبيعية تخضع لما تخضع له اللغات الحية. إذا قبلنا بالنظر إلى الواقع كما هو، لا كما نشتهيه أو كما تفرضه علينا تصورات بائدة، لرأينا أن الدارجة، على تنوع لهجاتها وتغير أساليبها وتعدد استعمالاتها بين الراقي والهجين، منضبطة بقواعد معينة، تجعلنا نصلح أخطاء صغارنا وتعابير أندادنا عند الحاجة. ويقول العلامة ابن خلدون، وهو ممن انتبه، بين علماء القرون الماضية، إلى واقع العمران وآليات الحكم وتداوله: "اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليست بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها [...] فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيه من التغاير الذي يعد عند أهل صناعة النحو لحنا." ومحمد بنيس، الذي يورد هذه الملاحظة في أحد مقالاته، يقوم باستبعادها ودفعها جانبا بسرعة معتبرا إياها من قبل "خرق الممنوع."[5] ترى ما المانع ومتى كان وصف واقع ظاهر للجميع من قبل الممنوع؟

وتدعونا ملاحظة الواقع إلى التمييز بين ما يسمى في المغارب بالدارجة ولغات التخاطب اليومي في المشرق العربي، التي قد تكون انبثقت عن لهجات العرب الأقدمين. هذا ما تؤكده تجارب المعاصرين، حيث أن أغلب المشارقة يجدون صعوبة كبيرة في فهم الدارجة، وكذلك الأمر بالنسبة لمن تعلم الفصحى من غير العرب وحاول الدخول في حوار مع من يتكلم الدارجة لكن لا يحسن الكلام بالعربية. على أي حال، فسواء كانت الدارجة منبثقة من العربية بالشكل الذي يتصوره العديد من المثقفين اليوم أم لا، فقد ابتعدت عنها بقدر كبير، يجعل من أغلب المتمكنين من العربية غير قادرين على فهم الدارجة.

ولبعض المؤرخين والمختصين في اللسانيات ملاحظات تفرض إعادة النظر في التصور الذي يفترض انشقاق الدارجة عن العربية. يلاحظ المؤرخون أن الوجود الفينيقي في شمال إفريقيا استمر لعدة قرون، وأن الفينيقيين من أصول سامية (وقد أدرجهم الطبري ضمن "العرب البائدة")، وأن لغتهم، البونية، كما سميت "اللهجة" الفينيقية التي تطورت في شمال إفريقيا، كانت شائعة في المنطقة طوال تلك القرون؛ فيتساءلون عما إذا كان وجود تلك اللغة في المنطقة قد سهل فهم العربية على الساكنة، وعما إذا كان الاختلاط بين لغتين ساميتين، بالإضافة إلى تأثير الأمازيغية، قد أنتج الدارجة، وهل هذا هو ما يفسر أوجه الشبه بين الدارجة والعربية. بعبارة أخرى، ربما يكون تواجد اللغة الفينيقية في شمال إفريقيا قبل وصول الفاتحين العرب

5. محمد بنيس، "على حدود العربية الحديثة"، **النهضة**، 9 (2014): 69.

وقبل موجات النزوح والاستيطان من طرف قبائل عربية، مثل بني هلال وبني سليم، وقرابة اللغة الفينيقية من اللغة العربية، حيث أن اللغتين تنحدران من أصول سامية، قد سهل فهم العربية على الساكنة وساعد على تقبل العربية، لغة الوافدين، بسهولة واستيعاب تعابير مقتبسة منها في لغة التخاطب السائدة آنذاك.[6]

أما المختصون في اللسانيات، فيؤكد بعضهم أن البنيات التي تعتمدها الدارجة تثبت انبثاقها من البونية، مما يجعل علاقتها بالعربية من نوع القرابة، قرابة بين لغات سامية تطورت انطلاقا من أصل واحد، لا من نوع الاشتقاق.[7] ولعل من بين الأمور التي تعطي مصداقية لهذه النظرية حالة معينة قل الانتباه إليها: تلك هي وضعية اللغة المالطية. مالطا جزيرة في وسط البحر الأبيض المتوسط غير بعيدة عن تونس، وهي الآن دولة مستقلة وعضو في الاتحاد الأوروبي؛وتشكل لغتها اليوم إحدى اللغات الأوروبية المعترف بها رسميا، إلا أن أي مغاربي يزور الجزيرة يكتشف، من أول وهلة، أنها قريبة جدا من الدارجة، بل وأنها دارجة مثل تلك التي يتحدث بها، مع فارق واضح، وهو كون العديد من المصطلحات أخذت من لغات أوروبية (الإيطالية والإنجليزية أساسا) عوض الأمازيغية والعربية، كما هو الحال في دارجة المغارب.

ومهما كان الأمر فإن للدارجة قواعد، كما أسلفنا القول، تجعلها كيانا لغويا منفصلا، كما لاحظ ابن خلدون منذ قرون عديدة، وهي وإن استعملت لإنتاج خطابات "هجينة" و"مبتذلة" لها أيضا تراث أدبي رفيع يتمثل في الملحون والعيطة والمالوف والأمثال (من منا لم يتأثر بأشعار الطيب العلج أو بأغاني الحسين السلاوي؟)

وإذا قبلنا هذه الملاحظات، تبرز على الفور أسئلة مثل: لم استعمال الدارجة؟ ولم تدوينها؟

أولا لأن الدارجة ذات رصيد أدبي لا يستهان به، يتعين المحافظة عليه كأي رصيد ثقافي أصيل، بل ولغة الخطاب بحد ذاتها، بكل تنوعها وأشكالها وتعابيرها الفريدة، تراث يتعين الحفاظ عليه.

كما أن للدارجة دورا لا مناص عنه في أطوار التعليم الأولي سواء للأطفال أو للكبار، حيث لابد من منطلق أولي، أعني من لغة يفهمها التلميذ قبل تعلم إحدى اللغات التي تعتمد في مسارات التربية الموالية.

---

6. محمد القبلي، "حول بعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب،" ضمن **جدور وامتدادات: الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط** (الدار البيضاء: توبقال، 2006)، 44.

7. Abdou Elimam, "Du punique au maghribi: Trajectoires d'une langue sémito-méditerranéenne," *Synergies Tunisie*, 1 (2009): 25-38.

وأكثر من هذا وذاك، فعلى الرغم من اعتبار الدارجة عامية تكونت من مجرد انحرافات عن اللغة الحقة، فإن ثمة العديد من المؤشرات التي تفيد أنها، حتى وإن لم تعتمد كلغة مكتوبة من أي طرف أو أية سلطة، قد أنتجت عالما من المعاني ونظرة متميزة للعالم، تظهر بوضوح في أدبها،مثلما يمكن أن نراه في الملحون والعيطة والمالوف والغرناطي، وأن لها قواعد نحوية حتى وإن لم تكتب.

يقال إن الدارجة موسومة بالتنوع، وإن لكل منطقة أو مدينة لهجة تختلف عن الأخرى، لكن واقع اللغات يبين أن التنوع والتطور والتغيير في الزمان والمكان ظاهرة طبيعية وأمر يتجلى في كل لغات العالم، بما في ذلك العربية الفصحى، التي على الرغم من تشبث أصحابها بالنماذج المعيارية، يبدو، خلال العقود الأخيرة، أنها تتطور وتتغير عبر الاستعمال، وأن أنواعا جديدة من "اللحن" أصبحت تتسرب إليها.

ولعل إحدى أهم خاصيات الدارجة أنها تربطنا بالشعوب المجاورة لنا، بل هي حقا تراث مشترك وأداة تواصل بيننا وبينها: المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا، دون أن ننسى لغة جزيرة مالطا، الدولة المستقلة العضو في الاتحاد الأوروبي.

لقد حان الأوان لتصحيح بعض التصورات السائدة والتي يعتبرها بعض المثقفين بديهية، وأهمها أن الفصحى، اللغة المكتوبة أو اللغة المعيارية، تشكل الأصل في اللغة، وأن كل تحول أو اختلاف يشكل "لحنا،" أي خطأ أو غلطا. نعلم اليوم أن التغيير والتطور والتنوع تطال الأحوال والعادات وأنماط السلوك، وأن الهدف من التنميط إنما هو فرض حد من الانضباط في الممارسات يسهل التخاطب والتفاهم، لا تجميد اللغة في وضع لا تتحرك منه.

5. والآن، ما العمل؟

وإذا قبلنا بأننا في وضع يتميز بازدواجية لغوية، وأننا نعتمد العربية لغةَ صِناعة، أي في المجالات المطبوعة بالرسمية (من إدارة وقانون وكل ما يتطلب التدوين إلى الإنتاج الفكري والأدبي) بإزاء الدارجة، لغة الطبيعة ولغة الأم للعديد منا، وهي اللغة التي تفهمها غالبية المغاربيين حسب اللغويين، بالإضافة إلى اعتمادنا لغات أوروبية في جوانب من أعمالنا وفي التعليم، فماذا عسانا نستنتج من ذلك؟ هل نعمل في اتجاه ما قاله جبران خليل جبران في شأن الإيطالية؟

يقول: "قد كانت اللغة الإيطالية الحديثة لهجة عامية في القرون المتوسطة، وكان الخاصة يدعونها بلغة "الهَمَجِ" ولكن، لما نظم بها دانتي وبتراك وكامُونس وفرانسيس داسيزي، قصائدهم وموشحاتهم الخالدة، أصبحت تلك اللهجة لغة إيطاليا الفصحى، وصارت

اللاتينية بعد ذلك هيكلًا يسير ولكن في نعش على أكتاف الرجعيين. وليست اللهجات "الهمج" العامية في مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعري والمتنبي من لهجة الإيطالية عن لغة أوڤيدي وڤرجيل. فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتابًا عظيمًا في إحدى تلك اللهجات، تحولت هذه إلى لغة فصحى." إلا أن جبران خليل جبران سرعان ما يستدرك: "بيد أني أستبعد حدوث ذلك في الأقطار العربية؛ لأن الشرقيين أشد ميلًا إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل، فهم المحافظون، على معرفة منهم أو على غير معرفة، فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده."[8]

ويبدو أن هذا التطور، مثلما لاحظه جبران، غير ممكن وذلك لسببين أساسيين اثنين:

أولهما أن المدافعين عن العربية فيما بيننا، بمن فيهم الفقهاء وعلماء الدين والمفكرين والأدباء والحداثيين، وهم يتمتعون بسلطة معنوية هائلة تخول لهم وزنا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد، يتمسكون بما سميناه "لغة الصناعة،" رافعين علم الولاء للدين والوطن، ولهم في ذلك تعليل أساسي له وجاهته، وهو ضرورة المحافظة على التواصل مع الموروث الديني والثقافي، من جهة، وعلى الانتماء إلى الشعوب المحافظة على ذلك التواصل من جهة ثانية. وبعبارة أخرى، إن التخلي عن"لغة الصناعة،" بالنظر إلى ما راكمته من كتابات ومعارف تكون الرأسمال الرمزي لشعوب جنوب وشرق المتوسط،سيكون خسارة باهظة وغير معقولة.

وثانيهما هو، كما أسلفنا، عدم وجود سلطات سياسية تتمتع بقدر من المشروعية لدى شعوبها، يجعلها في موقع يسهل عليها أن تفرض اعتماد لغة وأشكال معينة داخل تلك اللغة كلغةً رسمية مكتوبة. ومن الواضح أن لا سلطة سياسية في المنطقة المغاربية مستعدة للذهاب في اتجاه من هذا القبيل.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الدارجة ليست لغة المغاربة وحدهم، أو أي شعب آخر من شعوب المنطقة، بل هي مشتركة بينهم جميعا، مع وجود تنوع في اللهجات، قد يكون مهما أحيانا، لكنه لا يمنع الفهم المتبادل في غالب الأحيان، مثلما يكون الأمر في معظم اللغات بين مستعمليها. وتحمل العديد من اللغات اسم القوميات التي تستعملها (لغة الروس = الروسية، لغة الألمان = الألمانية الخ) أما الدارجة فلا تحيل على قومية معينة، وذلك لأسباب تاريخية لا تستعصي على الفهم، إذ أن المنطقة التي شاعت فيها الدارجة كانت قد أُلحقت بالإمبراطورية الرومانية ثم بدول مسلمة حيث كان الانتماء الديني أساس الهوية الجماعية. سميت بالدارجة

8. جبران خليل جبران، "مستقبل اللغة العربية،" ضمن **البدائع والطرائف**، (1923).

لأنها كانت عامة في المنطقة. ويلاحظ محمد القبلي بخصوص اللغة الأمازيغية أنها "قد عوملت كموضوع وصفي لا علاقة له بالهوية الذاتية الجماعية الموحدة تجاه الغير."[9] والظاهر أن الدارجة قد عوملت بالطريقة نفسها.

وإذن لا إمكان، من هذه الجهة، لحصول تحول في الدول العربية مثل ذاك الذي حصل في أوروبا؛ ومن ثم، فإن مسارا مثل ذاك الذي أشار إليه جبران خليل جبران بخصوص الإيطالية، ومثل ذلك الذي حلم به بعض الحداثيين في المشرق العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، لا حظ له في الحدوث.

وحدث لشعوب أخرى أن وجدت نفسها في ظروف مماثلة، حيث اختلفت لغة الخطاب الشائعة عن اللغة المعتمدة من طرف الخاصة، فتم اتخاذ مواقف مختلفة عن تلك التي اعتمدتها العرب: فقد حصل في أوروبا مثلا، فيما بين القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر، أن اعتمدت لهجات العامة لغاتٍ وطنية، وبالتالي كتابتها وفرضها في مجالات جغرافية محددة لغاتٍ مكتوبة تشكل مرتكزات للثقافات الوطنية. وقد رافق هذا التحول الذي حدث في أوروبا، عدد من التغييرات الجذرية التي طالت أساسا علاقة المواطن بالسلطات، بالسلطة الدينية أولا ثم بالسلطات السياسية. فتمكنت الكنائس الجديدة البروتستانتية من تحويل التدين من قبول أعمى وتقيد لا محدود بمعتقدات وطقوس تمليها الكنيسة الكاثوليكية إلى انفعال داخلي للأفراد وتأثر منهم بقيم تركز على العمل الدؤوب وعلى نكران الذات والاعتقاد بأن النجاح في الأعمال إنما هو دليل على حضور "بركة" إلهية. كما تغيرت المواقف تجاه السياسة والحكامة فأصبح ينظر إليهما كأمر عام يهم جميع المواطنين ويلتزم الكل بجعلهما تخدم الصالح العام.

ولا نقول بوجود علاقة سببية بين اعتماد لغة العامة وتحول الشعور الديني والسياسي؛ ولكن، في الآن نفسه، لا يمكن لأحد أن يتجاهل تزامن التغييرات التي حدثت في أوروبا على مختلف الواجهات فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. لقد حاول العرب، من جهتهم، إحداث تغييرات جذرية في المواقف السائدة بالرجوع إلى اللغة الفصحى وتعميم استعمالها، وتثمين الثقافة التي أنتجت بواسطتها، راجين من ذلك رجوع الروح التي سادت في الماضي ودفعت بالعرب إلى قمم في الإبداع، لكن الجهود في هذا الاتجاه لم تؤت النتائج المرجوة. وكل ما حدث هو أن دوائر "الخاصة" عادت إلى التشبث بامتيازاتها فأصبحنا نرى مجموعات من المثقفين تتخذ مواقف محافظة إلى حد كبير في مجالات معينة، مثل اللغة، فيما تدعو إلى التغيير الجذري في مجالات أخرى. والحال اليوم أن مجتمعاتنا ما عادت منقسمة إلى طبقتي العامة والخاصة، كما كان الحال في الماضي حين كانت هذه تتميز عن الأولى بفعل إمكانية القراءة

9. " حول بعض مرتكزات الهوية،" **مرجع مذكور**، 29.

والكتابة.وهذا يدفع بنا في اتجاه إشكاليات قد تبدو بعيدة عن مجال الممارسات اللغوية، لكن الارتباط بين المجالات موجود ولو حاول البعض دفعه جانبا، حيث يصاحب الانقسام المرتبط بظروف الحياة المادية وجود ثقافة شعبية بموازاة مع ثقافة النخبة مع تطورهما بشكل متواز.

وعلى الرغم من كل هذه المعطيات، يجب أن نعترف بخصوصية الأوضاع التي تبرز في مسار المجتمعات. لا شك أن العديد من الذين يواجهون هذه الأسئلة يخشون أن يتكرر عندنا ما حدث في بعض الدول الأوروبية التي تخلت عن اللاتينية عندما طورت لهجات محلية وجعلت منها لغات وطنية. ولكن هل من الضروري أن يعيد التاريخ نفسه؟ وهل يمكن مقارنة وضع العربية عندنا اليوم بوضع اللاتينية لدى الأوروبيين في العصور الوسطى؟ إن مقارنات مثل هذه تدفع عادة إلى تجاهل خصوصية الأوضاع والظروف. وعندما تُضمن أجوبة معينة في التصورات السائدة يصبح ضررها أكبر. وإذن فمن الأساسي، أن نُقر من البداية بأن الاهتمام بالدارجة والعمل على تدوينها لا يعني التخلي عن العربية في أي من المجالات أو الاستعمالات الأساسية التي تعتمد فيها.

يبدو أن انسداد الطريق أمام اعتماد الدارجة لغةً مكتوبةً عوض اللغة العربية يعني أننا أمام خيارات ثلاثة:

-. أولها وأهونها هو ترك الأمور تجري مجراها التلقائي دون تدخل أو عمل أي شيء. وهذا ما يطلق اليد لأجهزة الإعلام والشركات في استعمال الدارجة في الإشهار للوصول إلى الجماهير التي تهمها؛ وفي اتخاذها أية وسيلة لبلوغ أهدافها. ونحن نرى، اليوم، أن الدارجة معتمدة في وسائل التواصل الاجتماعي التي عممتها التكنولوجيا الحديثة؛ وذلك بأشكال مرتجلة. والنتيجة أن الدارجة تُواصل وتقوي دورها لغةً أساسيةً للتواصل في المجتمع، لكن بطريقة عشوائية ودون اعتبار لما تفرضها لمحافظة على تراثها الأدبي ودون التعامل معها كلغة حية تستحق العناية والمتابعة.

-. الخيار الثاني، وهو لا يلغي الأول ولا يحل محله، هو التعامل مع الدارجة حسب اقتراح المدافعين عن العربية في "بيان اللسان: من أجل اللغة العربية،" والذي يقول: "أما لغات التواصل اليومي والمخاطبة الشفاهية (العاميات) فهي لغات التبادل الرمزي للقيم، وهي جزء من الثقافة، بمعناها الأنثروبولوجي الواسع، وحامل من حواملها، وأداة من أدوات التعبير الثقافي (الأدبي والفني)، لكنها ليست أداة من أدوات الفكر والمعرفة، ولا تقبل إخضاعها – بعملية قيصرية – لأداء وظائف فكرية ومفهومية غير مؤهلة للنهوض بها. وقد يكون زجها في "مغامرة" الصيرورة لغة عالمة تزويرا لتاريخها اللساني والشعبي، وانتقالا غير مشروع بها من التلقاء الحر إلى التقنين الذي يفقرها من حيويتها الاجتماعية. ولكن، بمثل ما يتعين التشديد

على وجوب التكوين والتعليم والبحث العلمي باللغة العالمة، وهي –هنا– العربية الفصيحة، يتعين–في الوقت ذاته–رفع مستوى الاعتناء بالعامية، وتدوينها في معاجم لحفظها من التبدد، والاشتغال العلمي عليها كلغة تاريخية (لغة الذاكرة الجمعية)، ولغة تواصل اجتماعي، ولغة تعبير أدبي، وكتابة تاريخها اللسني المركزي والجهوي، ودراسة صور تفاعلها مع اللغة الأم (العربية) ومع محيطها اللغوي (في الريف والأطلس والجنوب والصحراء)، كما مع اللغات الوافدة من الخارج (الفرنسية، الاسبانية...) وتشجيع الدراسات اللغوية في الموضوع."[10]

والواضح من هذا المقطع، الذي أوردناه على طوله، هو أن الحل المقترح هو معاملة الدارجة كما عامل المستعمرون لغات شعوب اعتبروها بدائية، أي اعتماد مقاربات الأنثروبولوجيا الكولونيالية حيال لغة التخاطب الوطنية. فهل هذا من قبيل المقبول علميا وإنسانيا؟

-. الخيار الثالث، وهو بلا شك الأصعب ولكنه، في الوقت نفسه، يؤدي بنا إلى موقف واقعي فيما يهم مسألة اللغات، وإلى إقرار نهج تعامل مسؤول تجاهها، وإلى نتائج تُشرف أسلافنا وتحافظ على عبقرية اللغة التي نعبر بها عن واقعنا المعاش. يقتضي هذا الخيار أن يتم الاعتراف بالدارجة لغةً حيةً قائمة بذاتها وكاملة المواصفات، والتعامل معها على هذا الأساس. ومن شأن ذلك، إن حصل، أن يفتح الأبواب لمسارات عديدة: منها تدوين اللغة وضبط قواعدها، والعمل على حفظ تراثها، لا كما تحفظ قطع من فلكلور شعبي أو آثار حضارة بائدة أو لهجات قبائل بدائية، وإنما كما تحفظ لغة حية وثقافة متنامية. ولا شك أن ذلك سيشكل قطيعة مع تراتبية أو هرمية لا أساس لها في تطلعاتنا، ومع توزيع أدوار لا تبرير له في أوضاعنا الحالية.

السؤال الذي يطرح في هذه الحالة هو التالي: كيف يمكن تحقيق ذلك دون أن توجد سلطة داعمة مهيأة لوضع أجهزتها في خدمة تلك اللغة وتوفير الموارد البشرية اللازمة للقيام بالأعمال الأساسية؟

وكما أشرنا إلى ذلك، لا يمكن أن تحصل معاملة الدارجة على أنها لغة قائمة بجعلها بديلا للعربية في الأدوار التي تلعبها، أي في المجالات التي تتطلب صناعة وشكليات محددة، ولا ينتظر أن تضطلع به سلطة من أي نوع. والحل الوحيد في هذه الحالة هو أن تقوم جمعيات المجتمع المدني ومؤسساته بدور فعال؛ إذ ومن شأن هذا أن يكون فرصة فريدة للقيام بعمل لم يكن له مثيل إلى الآن.

وإذا كنا نجد في كل الحالات التي تم بها تدوين اللغات، إلى الآن، قرارا من سلطة ما في البداية، واختيارا من قِبلها لأشكال معينة من بين الممارسات اللغوية لجعلها معيارا ونموذجا

10. "بيان"، مرجع مذكور، 12.

للتعامل السليم مع إقصاء كل الأشكال الأخرى على أنها "سائبة" وهجينة ومبتذلة، فإنه، في هذه الحالة، يمكن تدوين دارجة وسطى (لهجة العاصمة مثلا) مع الاحتفاظ على الأشكال الأخرى. ولا شك أن توفر الأدوات المعلوماتية وإمكانية الاستفادة من تجارب رائدة (مثل تجربة ويكيبيديا التي مكنت من إنجاز موسوعة ذات فائدة كبرى بفضل تضافر مجهودات العديد من المتطوعين) يفتحان آفاق جديدة للعمل اللغوي، كما يشجعان على الإقدام على تجارب لم يكن بالإمكان تصورها في الماضي.

6. استثمار مبادرات الإصلاح

وكما أسلفنا، فقد أظهرت العلوم الإنسانية الحديثة أن اللغات تنشأ في شكل لهجات شعبية تتباين أشكالها فيما بين المناطق والأزمنة التي يعيش فيها مستعملوها، وأنه يحدث لبعض تلك اللهجات أن تُعتمد في الكتابة وتُدَون. لكن أغلب علماء العرب يعتقدون أن اللغات، وخاصة العربية، أنظمة تنشأ متكاملة ومحكمة منذ البداية، لا ينالها التاريخ ولا يمسها التطور. ولقد اتخذ العرب في مسألة اللغة توجها فريدا، وذلك بأن عملوا كل المستطاع للمحافظة على اللغة الأصلية التي نزل بها القرآن والتي ارتبطت باسمهم خلال مئات السنين، حيث كانت عنوانا لهويتهم وحاملا لثقافتهم.

وتتابعت الأجيال لقرون عديدة، تصدى خلالها علماء العرب لما اعتبروه "لحن العوام" كلما بدت محاولات لإدخال تعابير من كلام العامة ضمن الأشكال المقررة، مما جعل العربية اليوم إحدى اللغات القليلة التي اجتازت العصور وبقيت لغة حية تُستعمل كل يوم في مجالات التربية والصحافة والإعلام، على الرغم من أنها لم تعد سارية الاستعمال في الحياة اليومية ولا في أيظرف يتحدث الناس فيه بطريقة عفوية،ومن أنها لم تعد لغة الأم لأي من الشعوب التي تعتمدها اليوم (وربما لم تكن يوما لغة الأم لأيمن تلك الشعوب). وتجمع العربية اليوم شعوبا تناثرت في بقعة واسعة، من الخليج إلى المحيط كما يقال. كما تربط بين الملايين من الأحياء وأجيال عديدة من الذين سبقوهم وتجمعهم حول تراث ديني وثقافي غني ومتنوع. وهذا واقع لا يمكن لأحد أن ينكره.

إضافة إلى ذلك، برز خلال القرون القليلة الماضية تيار جعل الكثيرين يعتقدون أن الشعوب، كل الشعوب، مطالبة بالانضواء تحت راية دولة وطنية واحدة، مبنية على أساس الانتماء العرقي، تتميز بثقافتها الفريدة ولغتها الخاصة. كان ذلك عصر مد القوميات، وقد تجندت بعض النخب في العالم العربي مسايرة ذلك الركب، ونادت بانتماء شعوب المنطقة إلى أمة واحدة، ثقافتها تكمن في لغتها التي ظلت منسجمة موحدة رغم اتساع رقعة الأراضي التي انتشرت فيها ورغم تعدد الأجيال وصيرورة الزمن. نرى اليوم أن الملايين من الأطفال في كافة

المدارس، من الخليج إلى المحيط، يدرسون باللغة نفسها على الرغم من تعدد الدول وتباين اللهجات واختلاف العديد من أوجه الحياة الأخرى.

ومن جهة أخرى، ظهر أن الخط العربي الذي ظل يبهر الأجيال بالأشكال الفنية التي أمكن إنتاجها بخصوصه، وأفرز انطباعا بأنه مرتبط عضويا بالهوية العربية، يطرح مشاكل عويصة أمام تقنيات الطباعة الحديثة، ويضع عقبات أمام الراغبين في تعلم العربية. فقد ظهر أن استعماله في العصر الحالي يطرح مشاكل حقيقية على مستوى القراءة بالنسبة للمتعلمين، الصغار منهم والكبار. ولقد قيل إن القارئ بإحدى اللغات المكتوبة بحروف لاتينية يقرأ ثم يفهم أو يقرأ ليفهم، بينما القارئ بإحدى اللغات المكتوبة بحروف عربية يجب أن يفهم ليقرأ. ولو أن في هذا شيئًا من المبالغة، فإن غياب حروف الشكل يدفع بالقارئ إلى التكهن بخصوص المفردات المعروضة عليه، ويصل به الأمر أحيانا إلى اكتشاف أن تكهنه كان خاطئا فيضطر إلى إعادة القراءة من جديد. هذا وضع ربما قد ألفه القارئ العربي إلى حد أنه لم يعد يعيره أي انتباه، لكن تكلفته حقيقية، وقد تكون أحيانا خطيرة، حيث يكتفي القارئ العربي عادة بمعنى "تقريبي" ولو أنه يخصص وقتا أطول للقراءة.

وأرادت الدول العربية فور استقلالها مواجهة هذا الوضع، فأحدثت أكاديمية اللغة العربية في القاهرة سنة 1931؛ وكان من بين أول مشاريعها طلب عروض بإصلاح الكتابة العربية. تم إذا كالتوصل بعروض عديدة، منها ما اقترح اعتماد حروف لاتينية، وأخرى آثرت الحفاظ على الحرف العربي مع إدخال رموز الشكل ضمن الحروف. وفي هذا الاتجاه، برز أخيرًا مشروع الأستاذ أحمد الأخضر غزال الذي قدم حلولا لكل الحالات التي تطرح في شتى الميادين أمام إدخال الحرف العربي في تقنيات الطباعة وأجهزة الحواسب مع الاستجابة لكل متطلباتها، وباحترام تام للطابع الأصلي للحرف العربي، وحيازة موافقة أجهزة التنميط العالمية المتخصصة.

ما العمل الآن وقد توجه البعض نحو كتابة الدارجة؟ هل يتعين اعتماد الكتابة العربية الشائعة، أي بدون شكل مع القبول بضرورة اللجوء إلى التكهن فيما يخص كل كلمة وطريقة نطقها؟ ألا يشكل هذا الظرف مناسبة مواتية لاعتماد كتابة عربية جديدة، كتابة تحافظ على أشكال الحروف العربية المعتادة وتضيف ما يمكن من الشكل وتنميط الحروف بشكل يسهل عمليات الرقن والكتابة؟

ثمة إذن خيارات ثلاثة بالنسبة لكتابة الدارجة:

-. أولها اعتماد الكتابة العربية وفق ما قام به أغلب من عملوا على كتابة هذه اللغة. وهذا قد يسهل قبولها من طرف شرائح من الجمهور المعني، لكنه سيجعل الدارجة في مواجهة المشاكل التي تواجهها العربية.

-. الخيار الثاني هو اتباع نموذج اللغة المالطية والاستفادة من التراكم الذي حصل حولها. وكما أسلفنا القول، المالطية دارجة انفصلت أو فصلت عن الدارجة المغاربية منذ قرون عدة. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت البنيات والعديد من المفردات على الشكل المعهود في الدارجة، لكن عددا هاما من المفردات قد اقتبس من لغات أوروبية، من الإيطالية والإنجليزية على الخصوص. وتكتب المالطية بحروف لاتينية، وقد أُلف في شأنها العديد من المراجع الأساسية، مثل كتب النحو والقواميس. لكن نموذج المالطية (الذي يمكن أن نضيف إليه مثال التركية التي انتقلت كتابتها من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، دون أن ينتج عن ذلك أي انفصام للشخصية الوطنية عند الأتراك) على فوائده العديدة، يبدو صعبا بالنظر إلى المعارضة الشديدة التي سيلقاها، ولا شك، من طرف الذين يعتبرون أن "الشخصية" المغاربية مرتبطة بالحرف العربي، وأن اعتماد الحرف اللاتيني قد يشكل نوعا من الخيانة.

-. الخيار الثالث هو اختيار الحرف العربي مع التعديلات والإصلاحات التي أدخلها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب تحت إشراف المرحوم أحمد الأخضر الغزال.

7. آفاق المستقبل ورهاناته

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المعطيات والملاحظات حول جوانب من الموضوع، نود وضع سؤال نراه محوريا فيما يخص تحديد مسارات المستقبل:

ماذا يمكن أن نفعل في مجال اللغة؟ هل يمكن التصرف في الوضع اللغوي حسب إرادتنا باتخاذ قرارات وتحديد مسارات وفق ما نرى؟ أم أن اللغات تشبه كائنات حية تتطور وتنمو أو تضمر حسب نواميسها أو آلياتها، في استقلال عن إرادتنا؟ الواقع أن الأمر بين الاثنين، لقد واضب المتعلمون في العالم الإسلامي (وهو أوسع بكثير مما نسميه اليوم العالم العربي) على الدفاع عن اللغة المكتوبة المعيارية. ولا شك أنهم نجحوا إلى حد كبير في تحقيق ذلك، على الأقل إلى بداية القرن العشرين، إذ أنه منذ دخول المطبعة إلى المجتمعات التي اعتمدت العربية، وبالأخص منذ ظهور صحافة مكتوبة في أرجاء عديدة، بدا جليا أن لغة الصناعة، وإن بقيت متميزة عن "العاميات،" قد بدأت بدورها في التطور، إلى حد أن من بين المدافعين عن العربية من أصبح اليوم يقبل بوجود عربية حديثة في مقابل عربية قديمة، بل وُجد من تجند للدفاع عن العربية الحديثة، والتهجم على من خالف ذلك الرأي. ولا شك أن الواقع هو أن هؤلاء، على تمركزهم في مواقف محافظة في مجال اللغة، يواجهون من هم أكثر محافظة منهم؛ فهل نستنتج من ذلك أن الطبيعة تفرض نواميسها ولو داخل الأوساط التي نذرت أكبر المجهودات لفرض الحفاظ على معايير تثبت اللغة في وضع مثالي قار؟

وإذا نظرنا إلى معاهد تدريس اللغة العربية في الجامعات الغربية نجد أن تمييزا قد فرض نفسه خلال العقود الأخيرة بين ما سموه العربية القرآنية والعربية المعيارية الحديثة (Qur’anic Arabic vs Modern Standard Arabic (MSA))، مما يدفع إلى التساؤل عما حدث فعلا للغة العربية: هل أفلت زمام الأمور من بين أيدي المتمسكين باللغة المعيارية؟

والواقع أن زمام الأمور قد أفلت من بين أيديهم منذ البداية، لما انفصلت لغات التخاطب اليومي عن اللغة المعيارية أو ابتعدت عنها؛ لكن ما يحدث اليوم أكثر خطورة، إذ أنه ينذر بشرخ واضح بين فصحى قديمة وفصحى حديثة أو ربما لغات فصيحة عديدة.

ومع هذا يدعو المدافعون عن الفصحى إلى اتخاذ قرارات لفرض اللغة العربية في مجالات لا تزال تعتمد فيها لغات أجنبية، ولإقصاء أية محاولة لاعتماد الدارجة في أي مجال، بما في ذلك مجالات التعليم الأولي. وفي هذا السياق أتى التعليل بأن للغة حقوقا يجب احترامها، وأن العربية قادرة على القيام بأيمن المهام التي تقوم بها اللغات الأجنبية سواء في مجال العلم أو مجالات الاقتصاد والمال والأعمال، وذلك لكونها قد قامت، فعلا، بتلك المهام في الماضي.

هنا يظهر جليا أن المدافعين عن "حقوق اللغة" قد تبنوا –ضمنيا–نظرة أفلاطونية، تجعل من اللغة نظاما قائما بحد ذاته، منفصلا عن الممارسات السائدة في المجتمع. ولربما كانوا أفلاطونيين أكثر من أفلاطون نفسه، عندما اعتبروا أن المعيار، وهو من إنتاج البشر، موجودا وقائما بذاته وليس على مبتدعيه سوى أن ينحنوا أمامه إكبارا وإجلالا.

أشرنا أعلاه إلى أنه قد حصل أن اتخذت الحكومات والمؤسسات العمومية قرارات في مجال اللغة، وقد حدث أن وُضعت سياسات لغوية كان لها من النجاعة ما يصعب تصوره. ونعلم، مثلا، أن الفرنسية كانت، في أصلها، لهجة متداولة في منطقة صغيرة، وأن السلطات المركزية قررت، يوما ما، تعميمها في كافة التراب الذي كانت تتحكم فيه، وقد نجحت في ذلك عن طريق تجنيد جيوش من المدرسين وتوزيعهم على كل المناطق والأقاليم، وقد كان هؤلاء، آنذاك، جد متحمسين للمهمة التي أسندت إليهم نظرا لقوة الشعور بالقومية حينئذ. وكان شعور المدرسين وأداؤهم شبيها بشعور وأداء الدعاة المسلمين الأوائل، الذين كانوا متأثرين بكل جوارحهم بتعاليم الدين الجديد؛ لذلك نجح المدرسون في المهمة التي أسندت إليهم، مثلما نجح أولئك الدعاة في نشر الدعوة على أوسع نطاق. والسؤال اليوم هو: هل يمكن تكرار هاتين التجربتين بالاعتماد في وقتنا هذا على مستويات من التجنيد مثل تلك التي سادت أيام طفرة الشعور القومي وأيام الدعوة الإسلامية الأولى؟

هل يجب أن ننظر اليوم إلى مسألة اللغة كما ينظر البعض إلى المعتقد الديني؟ أم يجب علينا أن نضيف حقوقًا للغة إلى ما أسماه الفقهاء حقوق الله؟ الواقع أن وقتنا الآن مختلف عن وقت

أسلافنا، وأن زمان الأفلاطونية والكيانات التي تتصورها قد ولّى إلى غير رجعة. أمامنا واقع تتجلى فيه ممارسات لغوية معينة تتطور باستمرار، وفيه أجيال صاعدة تتطلع إلى الإسهام في مسارات الإنسانية حاليا، في ميادين العلم والأعمال والحقوق السياسية وظروف الحياة في المجتمع. أمامنا أيضا تراث يتكون من تراكمات في لغة الصناعة وفي لغات التواصل الطبيعي. ألم يحن الوقت لمواجهة هذه الأوضاع بعيدا عن الشعارات وعن استنفار المشاعر واستحضار مواجهات حدثت في الماضي ما عاد لها من مبرر اليوم؟

البيبليوغرافيا

al-Kabli Mohamed, "ḥawla baʿḍi judhūr al-waḍʿ al-lughawī al-ḥālī bial-Maghrib." Dimna *judūr waimtidādāt: al-hawiya wallughat wal'islāḥ bial-Maghrib al-waṣīt*. Ad-Dār al-baydā': tūbqāl,, 2006.

_____. *Tārīkh al-Maghrib, taḥyīn watarkīb*. Ar-Ribāt: al-maʿhad al-malakī li-lbaḥth fī tārīkh al-Maghrib, 2012.

Binis, Mohamed. "ʿlā ḥudūd al-ʿarabiyya al-ḥadītha." *An-nahda* 9 (2014): 69 et sq.

Elimam, Abdou. "Du punique au maghribi: Trajectoires d'une langue sémito méditerranéenne." *Synergies Tunisie*, 1 (2009): 25-38.

Farghaly, Ali. "The Arabic Language, Arabic Linguistics and Arabic Computational Linguistics." In https://bit.ly/2UOzuv0

Jubran, khalil Jubran. "Musataqbal al-lugha al-ʿarabiya." Ḍimna *al-badā'iʿ wal-ṭarā'if*, 1923.

Taha, Ḥusayn. Fī al-'adab al-jāhilī. Al-Qāhira: Mu'asasat Hindawi, 1927.

ملخص: عودة إلى مسألة اللغات في المغرب: من أجل مقاربة واعية ومسؤولة

تدعو هذه المقالة إلى التفكير من جديد في المسائل المتعلقة باللغات في المغرب والمنطقة المغاربية بوجه عام من خلال فهم يستند إلى المكتسب من المعارف في العصر الحديث بخصوص ظهور اللغات وتطورها وقدرتها على التكيف مع أشكال محددة من التواصل. كما أنها تدعو إلى النظر من جديد في ما يربط مجالات اللغة والثقافة والهوية من علاقات، وذلك من خلال فهم أفضل للعوامل التاريخية التي تؤثر على هذه المجالات ووعي أكبر بأشكال الواقع التي تحدد احتياجات الأجيال الجديدة في عالم يتزايد اندماجا.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، الدارجة، الثقافة، الهوية، المغرب، المنطقة المغاربية.

Résumé: Retour à la question des langues au Maroc: pour une approche avisée et responsable

Cet article invite à reprendre la question des langues au Maroc sur la base des connaissances acquises dans les temps modernes à propos des processus par lesquels les langues apparaissent, évoluent et véhiculent des formes de communication particulières. Il invite également à repenser les relations supposées exister entre langue, culture et identité, encore une fois à partir d'une meilleure connaissance des facteurs historiques qui affectent ces domaines et d'une prise en compte des réalités qui déterminent les besoins des nouvelles générations dans un monde de plus en plus intégré.

Mots-clés: Langue arabe, darija, communication, language, identité, culture.

Abstract: Revisiting the Question of Languages in Morocco: for an Informed and Responsible Approach

This article invites a rethinking of the issues related to languages in Morocco through an understanding based on knowledge acquired in modern times about languages emergence, evolution and their adaptation for specific forms of communication. It also invites a reconsideration of the relationships between language, culture and identity, through a better understanding of the historical factors that affect these areas and a greater awareness of the realities which determine the needs of new generations in a world increasingly integrated.

Keywords: Arabic language, darija, communication, language, identity, culture.

Resumen: Revisitando la cuestión de las lenguas en Marruecos: para un enfoque informado y responsable

Este artículo invita a repensar las cuestiones relacionadas con los idiomas en el Marruecos a través de un entendimiento basado en el conocimiento adquirido en los tiempos modernos sobre el surgimiento de los idiomas, la evolución y su adaptación a formas específicas de comunicación. También invita a reconsiderar las relaciones entre lenguaje, cultura e identidad, a través de una mejor comprensión de los factores históricos que afectan estas áreas y una mayor conciencia de las realidades que determinan las necesidades de las nuevas generaciones en un mundo cada vez más integrado.

Palabras clave: lengua árabe, darija, comunicación, lengua, identidad, cultura.